المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:06، العدد:02 (2022)، ص155-171

التكامل بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على العمل الخيري في تاريخ الغرب الإسلامي

Complementarities between governmental organisms and popular institutions for setting up philanthropic actions in the history of the Islamic West

لخضر بولطيف
جامعة المسيلة (الجزائر)
lakhdar.boultif@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2022/09/20
تاريخ القبول:
2022/10/03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ العمل الخيري
- ✓ الهيئات الحكومية
- ✓ المؤسسات الأهلية
- ✓ الغرب الإسلامي

الملخص:

إن مركزية "**العمل الخيري**" في المدونة التراثية الإسلامية، لتغري الباحث بالنظر فيما وراء النصوص، وما يحفّها من شروح وتفسيرات، إلى ما يضجّ به واقع الناس، ويتماهى مع همومهم وانشغالاتهم، مما تنتظمه تواريخهم من أحداث ووقائع مسطورة. ولذلك كان من رهانات هذا البحث أن ينفذ إلى أعماق الحراك المجتمعي في حقبة تاريخية بعينها، أُتخذت كمحك لإجراء مقاربة تاريخية، تهدف إلى تتبع تجليات "**العمل الخيري**"، والوقوف على بواعثه ودواعيه، بقدْر اختبار جدواه وفاعليته، ومدى تحقيقه لأهدافه المعلنة. ولقد اختار البحث لنفسه أن يجري مقاربته في سياق جدلي، مقابلا بين دور الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على "**العمل الخيري**"، محاولا بقدر ما تتيحه الإفادات والشواهد الخبرية، الإمساك بالتقاطعات الممكنة، كما المفارقات المتوقعة، بين طرفين يرتهن أمن المجتمع واستقراره لمدى الوئام والتكامل الحاصل بينهما. لا يقدم البحث نتائج حاسمة نهائية، بقدر ما يعلن عن أهمية استصحاب التاريخ في أنساقه العميقة السكونية، في الكشف عن مقاصد النصوص، والاهتداء إلى سنن الله في الآفاق والأنفس.

Article info

Received:
20/09/2022
Accepted:
03/10/2022

Key words:
- ✓ Philanthropic action
- ✓ governmental organisms
- ✓ popular institutions
- ✓ Islamic West

Abstract:

Surely the central place of the "**philanthropic action**" in the Islamic heritage corpus seduces the researcher to seek senses behind texts with its entourage of explanations and interpretations, to achieve what the population reality gives as preoccupations and problems in the written historical events. As a result, this article aims at deepening the sight of the social activity in a certain period, taken as a criterion for a historical comparative study, to follow "**the philanthropic action**" as well as its causes without forgetting its utility and effectiveness and the evaluation of the realisation of its declared objectives. More, the researcher chose to carry his approach in a dialectic context, comparing between the governmental organisms and the popular institutions in fulfilling "**the philanthropic action**", trying, as long as the historical narration permits it, to grasp the possible commons points like the expected differences, between two sides on whose harmony and complementarities the peace and stability of society rely. The research does not propose final results but rather focuses on the importance of accompanying History in its profound and static systems, for discovering goals of texts and attaining God's law in horizons and souls.

مقدمة

يدور فعل الخير بين نص يمليه، وواقع يتجلّى فيه، وللنص حرفانية تكاد تبتليه بالانغلاق والجمود، وللواقع إكراهات ما برحت تسِمه بالاستعصاء والصدود. وليس كالتاريخ قاسما مشتركا بين النص والواقع، بما يختزنه في رصيده الثري من فصول التجربة البشرية، ما يسمح للناظر فيه بالوقوف على مساحات من التناغم بين النص والواقع؛ الأول فيما لا ينفك عنه في خصائصه من مرونة ومقصدية، والثاني فيما يعتريه من تبدل أحوال وشواهد، وتجدد أعراف وعوائد.

1.مركزية "العمل الخيري" في خطاب المدونة التراثية الإسلامية

تتشكل ملامح الخطاب الديني في المدونة التراثية الإسلامية مما يستمد منه أبجدياته الأولية، وتقوم عليه بُناه الأساسية، من نصوص مرجعية قرآنية ونبوية. وإن المتتبع لأدبيات هذا الخطاب فيما يتصل بفعل الخير، يجده على الرغم من انفتاحه على عطاء التجربة الإنسانية في الإعلاء من شأن "**الخيرية**"، إلا أنه يحرص بشكل خاص على توكيد الوُصلة بإطاره المرجعي التأسيسي، ممثلا في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تخاطب ضمير الإنسان، وتستثير كوامن الخير في نفسه، لينزع إلى التخلق بأخلاق السماحة والإيثار، ولينأى عن الارتهان لمشاعر الشح والأثَرة.

ومن بين أهم النصوص التي كان عليها مدار المدونة التراثية، في التنويه بفعل الخير، والتذكير بجزيل ما ادخره الله يوم القيامة من جزاء لأصحابه، نكتفي –على سبيل التمثيل– بإيراد ما يلي:

قوله تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ، وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ، وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 272].

وقوله: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: 274].

وقوله: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ [المزمل: 20].

وقوله: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: 09].

وقوله: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: 180].

قوله ﷺ: (**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**)[1].

وقوله: (**السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ. وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ**)[2].

وقوله: **(مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ المُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، اِحْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ، دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ)** [3].

وعلى أن إجالة النظر في مدونة تفاسير القرآن الكريم، وشروح الحديث النبوي، لن يظفرنا بأكثر من توكيد المعاني اللائحة من النصوص، عدا تفصيلات وتفريعات يسيرة، تخص المستحقين للإحسان، وفيما إذا كان غير المسلمين مشمولين بالخطاب الإلهي في التمكين من النفقة[4]، أو مزيد تصوير لفداحة العقاب الذي يتهدّد المؤثرين لحظوظ النفس، المستكينين للحطام الدنيوي، الغافلين عن الباقيات الصالحات[5].

إلا أن تتبع واستقراء النصوص والسياقات ذات الصلة في المدونة التراثية السياسية، أو ما يُصطلح على تسميتها بـ "**الآداب السلطانية**"، وبقطع النظر عن موقف نفترق فيه عن القائلين بنمطيتها أو ذرائعيتها[6]، فإن المدونة تصدر عن رؤية ثابتة في الاحتفاء بـ "**عمل الخير**"، وجعله ركيزة أساسية في المنظومة القيمية الإسلامية، وذلك من خلال محورين متكاملين، بدا الرهان عليهما ملحا:

1.1. المحور الأول: السخاء قرين المُلك

تبارى كتّاب الآداب السلطانية في التنويه بفضيلة الجود والسخاء[7]، وامتداح الكرم الذي هو "**اسم واقع على كل نوع من أنواع الفضل، ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل**"[8]، وتواطأت مصنفاتهم –مشرقا ومغربا– على الاستدلال بقول أرسطو في حد السخاء؛ إنه "**بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وإيصاله إلى مستحقه بحسب الطاقة**"[9].

حتى إذا ما تقرر ذلك، وحصل التسليم به، جعلوا "**السخاء**" قرين المُلك، ومن قواعده التي بها زينته[10]، وكماله[11]، ودوامه[12]. وما هي إلا أن كان ذلك كالتعلّة التي تعللوا بها لمخاطبة الملوك بضرورة الاتصاف بخلُق السخاء، فإن "**السلطان بالتخلق به أولى، وبشرف الانتساب إليه أحرى**"[13]، بل أنَّ –يضيف آخر– "**أحق الناس بالكرم الملوك، وذلك لارتفاع أقدارهم، واجتماع أموالهم، وعظيم أخطارهم**"[14].

وكان من أجلِّ النصائح التي حرص كتّاب الآداب السلطانية على إسدائها للملوك، في سياق حثهم على تحري فعل الخير وإسدائه، والنأي عن سلوك البخل ومذمّاته، أنْ "**يجب على الملك الفاضل، الذي يعرف حق نعمة الله عليه، فيما خوّله منه وآتاه، ومهّد له وأعطاه، أن لا يبخل بمال الله على عباده، فيما فيه صلاحهم**"[15]؛ فإن الملوك "**أقل الناس عذرا في البخل**"[16].

2.1. المحور الأول: الرعية مادة المُلك

لما كان ماثلا في وعي السلطان أن "**الرعية هم مادة الملك**"[17]، فقد دأب كتّاب الآداب السلطانية على إيراد النصوص والآثار الدالة على الرفق بالرعية[18]، وإفراد أبواب مستقلة؛ في "**ما يجب على السلطان من حسن السياسة، وما يلزمه من الصيانة للرعية والحراسة**"[19]، وفي "**الرفق بالرعية وسياستها، وتأمين السبل، وما يلحق بذلك**"[20]، و"**ذكر الرفق بالرعية، وتحريم ظلمهم وتعذيبهم، وأنه مسؤول عنهم**"[21].

وقد اشتملت تلك الأبواب وغيرها على تزيين الرفق بالرعية، وحياطة مصالحها، وخاصة إبان الشدائد والنوائب التي تنزل بهم[22]، ويكون أكثر المتضررين فيها الضعفاء؛ من فقراء ومحاويج[23]، وأرامل وأيتام[24]. يقول الماوردي (ت 450هـ/1058م): "**وينبغي للملك أن يقيم رعيته مقام عياله واللائذين به، في ارتياد موادهم، وإصلاح معاشهم، بالإحسان إليهم، وكف الأذى عنهم**"[25].

ولا يبعد ذلك عما نصح به الغزالي (ت 505هـ/1111م) السلطان، من أنه "**إذا وقعت رعيته في ضائقة، أو حصلوا في شدة وفاقة، أن يعينهم، لاسيما أوقات القحط وغلاء الأسعار، حيث يعجزون عن التعيش، ولا يقدرون على الاكتساب، فينبغي –حينئذ– للسلطان أن يعينهم بالطعام، ويساعدهم من خزائنه بالمال**"[26].

وليس مستغربا أن جرى التأكيد –المرة بعد المرة– على حق الفقراء والمساكين في بيت المال، من الذين "قصرت بهم الضرورة عن اكتساب قدر الكفاية"[27]، بحيث ينبغي أن تكون لهم الأولوية على غيرهم، وأن يستوفوا من بيت المال ما يغنيهم عن الحاجة إلى مطعم وملبس ومسكن[28].

2. مغرب العصر الوسيط... جوائح، أوبئة ومجاعات

على الرغم مما اشتهرت به بلاد المغرب من اتساع أرزاق، وعميم خيرات[29]، مما جعلها عرضة لأطماع الغزاة عبر تاريخها الطويل، إلا أنها –مع ذلك– لم تسلم في فترات كثيرة من وقوعها تحت طائلة الجوائح والأوبئة والمجاعات. وهي ناحية كانت محل اهتمام عدد من الباحثين، يعكسه ما أنجز بشأنها من أطاريح جامعية[30]، وما انعقد من ندوات علمية[31].

ولقد شهدت الفترة الممتدة ما بين ق 05هـ/11م وق 10هـ/16م، حصول قحوط ومجاعات، بصورة تكاد تكون دورية[32]، كان لها انعكاسات فادحة على ساكنة المغرب، بحيث اشتدت معاناتهم، وتفاقمت حاجتهم، خاصة المعدودين من ذوي الدخل الضعيف والمحدود، والمنتمين إلى الشرائح الاجتماعية الهشة.

تحدثنا المصادر عن مجاعة سنة 536هـ/1141م، حيث "**ضاقت الأرض برُحبها على المساكين، ومادت بعطفي شرقها وغربها على المحتاجين**"[33]. وفي سنة 616هـ/1219م كانت المجاعة التي عانى منها "**الظاعن والمقيم، وتناهى الحال في مزيد السعر إلى ما لا نهاية له**"[34]. ويبدو أن الجدْب والغلاء قد تمادى لسنوات لاحقة، إذ يطالعنا مؤرخ مشرقي في أخبار سنة 620هـ/1223م، أنه "**فيها كان في الغرب من الغلاء، ما لا يعبر عنه، بحيث أنهم أكلوا الميتة جميعها، وذلك أن المطر انحبس عنهم من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة وستمائة**"[35].

وغير خاف أن الفتن والحروب التي دارت رحاها طوال العقد الثالث من القرن 07هـ/13م[36]، ستكون لها آثار وخيمة، في استشراء المجاعة، و"**عدم الأقوات والمرافق**"[37]، فأضحى الناس لذلك –حسب تعبير مؤرخ مغربي ينقل عن شهود عيان–، "**في اضطرام، واستعار، واحتدام**"[38]، إذ قد "**استولت المجاعة على جمهور الناس، ورأوا محنا يُستعاذ بالله منها**"[39]، وقد يكون عريا عن المبالغة وصف أحدهم واقع الحال بقوله: "**وجدت**

بلاد المغرب قد اضطرمت نارا، واستولى الجوع بها، حتى أهلك العالم"[40]. وكان من تداعيات المجاعة الشديدة التي شهدتها مدينة سبْتة سنة 637هـ/1239م، أن ظلت ماثلة في المخيال الجمعي للساكنة، حتى كان الناس –بعدئذ– "**يسمونه بعام سبعة، وهو مشهور عندهم، يتمثلون به بينهم**"[41].

وقد لا يكون من السهل تصوّر مدى ضراوة تلك المجاعات، وما كان يواكبها من غلاء مفرط، وينشأ عنها من أوبئة فتّاكة[42]، ما لم يُتأمّل ما دفعت إليه حالُ الضرورة الناسَ، من الاقتيات على ما لا يصدُق عليه وصف الغذاء، أو ما قد يكون ضرره أكثر من نفعه[43].

3.قيام الهيئات الحكومية[44] على العمل الخيري بين الوفاء والتقصير

بين المثال والواقع تظل دوما شُقة قائمة، قد تضيق أو تتسع، بحسب الأحوال والظروف، بل بحسب مدى تجذّر المبادئ والقيم التي يؤمن بها المجتمع في النفوس؛ نفوس الحكام والمحكومين معا. وعليه فإننا سنفترض سلفا أن جدلا لابد وأن يكون قائما بين واقع مُزرٍ كالذي وقفنا على بعض اختلالاته، ومثالٍ كالذي يجسده خطاب المدونة التراثية السياسية؛ سواء في مناشدته عامة الناس بأن "**لا يدع [أحدهم] فاقةً لمحتاج إلا سدّها بقدر طاقته، ولا يترك فقيرا في جواره وبلده، إلا ويقوم بتعهده، ودفْع فقره، إما بماله وجاهه، أو بالسعي في حقه بالشفاعة إلى غيره**"[45]، أو في مناشدة الخطاب خاصة الناس –والملوك من باب أولى– أنه إذا قُدّر وقوع آفة أو قحط، واتفق وجود فقراء ومُملقين، لم يف عائد الزكاة بحاجاتهم، فإنه يترتب في "**حق الإمام أن يجعل الاعتناء بهم من أهم أمر في باله، فالدنيا بحذافيرها لا تعدل تضرر فقير من فقراء المسلمين**"[46].

تباينت آراء الباحثين المعاصرين بشأن قيام "**المخزن**"[47] المغربي على العمل الخيري؛ بين من يشيد باضطلاعه بمسؤولياته اتجاه الرعية، ويرى أنه "**كان يعمل –باستمرار– للحد من المجاعات، وإنهاء حالة التأزم، أو –على الأقل– الحيلولة دون تحوّل أزمة الغلاء إلى مجاعة ضارية**"[48]، وبين من يميل إلى الاعتقاد بتقصيره، والإخلال بواجباته، ويرى أنه لم يتبن "**سياسة خاصة لمواجهة المجاعات**"[49]، بدليل غياب أي محاولة جادة لاستئصال "**ظاهرة التسول**"[50].

وإذا كان الرأي الأخير يتأيد بجملة نصوص مصدرية، من قبيل ما أفاده ابن عِذارى المراكشي (حي سنة 712هـ/1312م)، من أنه في مجاعة سنة 632هـ/1235م كان عند حاشية المخزن من الحِنطة "**ما تتمشى به أحوال الناس مدة طويلة، ولكن حب النفس منعهم من إخراجه، والتمسّك به**"[51]. أو ما أفاده –أيضا– معاصرُه وبلديُّه ابن عبد الملك (ت 703هـ/1303م) من أن فترة الرشيد الموحدي (630–640هـ/1232–1242م)، والتي انقضت جلّها "**في هرَج، وغلاء مفرط، وفتن مظلمة، وأهوال لا قبل لأحد بها**"[52]، كان يصرف إلى أحد اللائذين به، إكراما مخزنيا شهريا، يقاوم "**سبعة قناطير ونصف قنطار من الحُوَّارَى**"[53][54].

إلا أن الرأي الآخر –أيضا– لا تعوزه النصوص العاضدة، ولا الشواهد المؤيدة، فإنه مما أثر على خلفاء الموحدين، أنهم كانوا يُدرّون الأرزاق والصدقات، في مناسبات عديدة؛ من جلوس لبيعة[55]، أو إبْلال من

مرض[56]، أو تجهز لعدو[57]، فكان عطاؤهم يعم الفقراء والمحاويج، والضعفاء والمساكين، والغرباء والمنقطعين. وربما أوعزوا إلى بعض أهل الصلاح، ممن كان يغشى مجالسهم، تفريق صدقاتهم "**التطوعية**" على من يعلمونه من "**أهل الستر والصون**"[58]. وكان يعقوب المنصور منهم مذكورا بكثرة الصدقة، حيث إنه كان "**كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون، فيجمعون إلى موضع قريب من قصره، فيُختنون، ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة، وربما زاد على المثقال درهمين جديدين**"[59].

أما لما يتعلق الأمر بالنوائب والملمّات، فلطالما نهد خلفاء بني عبد المؤمن إلى رفد رعاياهم، كما جرى مع أهل مدينة "**قُونِكة**" بالأندلس، سنة 567هـ/1171م، وقد اتصلت معاناتهم لخمسة أشهر، تحت حصار العدو لهم، فأمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، بإحصاء من فيها، وعمّهم بالعطاء، ثم دعا إلى تنظيم ما يشبه اكتتاب، انخرط فيه قادة الجيش، والوزراء، ووجوه الناس وأعيانهم، فاجتمع لأهل المدينة المنكوبة "**زرع وضرع**"، وتتالت عليهم "**الصدقات، والعطيّات، والهبات**"[60].

وكذلك لما حاقت بمرَّاكُش مجاعة شديدة سنة 591هـ/1195م[61]، فوّض المنصور الشيخَ أبا العباس السبْتي (ت 601هـ/1205م)، وأمر الوكلاء على بيت المال بتمكينه منه، وامتثال رأيه وتدبيره، ففرّق مما فيه من زرع وثياب على المحتاجين مدة ثلاثة أيام، حتى "**لم يبق مسكين ولا مسكينة إلا ورضي**"[62]. ولا يبعد صنيعه ذاك عن صنيع حفيده المستنصر (620-610هـ/1213-1224م) الذي عمد في أثناء مجاعة سنة 616هـ/1219م، إلى "**فتح المخازن المعدّة لاختزان الطعام، ففتحت للعامة، وفرّقت عليهم**"[63].

ومهما يكن من أمر، فإن الصنيع السلطاني في التلبّس بفعل الخير، ووهب النوال، سيظل -على مرّ العصور- مشوبًا -مهما خلصت نيات أصحابه- بقصد الدعاية والاستعراض، على أنه لا يساورنا الشك في أن الصنيع نفسه، وبصرف النظر عن نواياه المضمرة، ودواعيه الظرفية، لابد وأنه كان ذا جدوى في التخفيف من معاناة الناس، ومواساتهم في حال العوَز والشدة.

4. قيام المؤسسات الأهلية[64] على العمل الخيري من التضامن إلى الإيثار

لا يكتمل المشهد التضامني التكافلي في تاريخ مجتمع الغرب الإسلامي، دون تسليط الضوء على أطراف أخرى كان لإسهامها دور لا يقل عن دور الهيئات الحكومية، إن لم يفقه، ونقصد به الدور الذي اضطلعت به المؤسسات الأهلية، أو ما يقابل في لغة العصر الوسيط فئة الفقهاء والمتصوفة.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه، قبل تجلية هذا الدور، هو هل كان الفقهاء والمتصوفة -عصرئذ- يشتملون على موارد مالية، يتهيأ لهم معها القيام بدور تكافلي يضاهي ما قامت به السلطة الحاكمة؟

أما بشأن الفقهاء، فنجدنا بإزاء ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) الذي يقرر "**أن القائمين بأمور الدين من القضاء والشهادة والفُتيا والتدريس والإمامة والخطابة والآذان، ونحو ذلك، لا تعظم ثروتهم غالبا**"[65]، وهو تقرير على قدر كبير من الوجاهة، عدا أننا نخشى أنه لا ينسحب سوى على الفقهاء في عصره، وما تلاه، وإلا

فإن الفقهاء من قبله، لطالما كانوا محسوبين على أهل "**الجِدة واليسار**"[66]، ولربما تُوصّل من هذه الناحية إلى اتهامهم بالركون إلى الدنيا، واستكثارهم من الحُطام[67].

وبمنأى عما درج عليه بعض الباحثين[68]، من التشنيع على الفقهاء، باستغلال مناصبهم في تحقيق المزيد من الإثراء، وهو افتراض مورس بكثير من التعميم والتعسّف والاجتزاء، وقد تأتى لنا تفنيده في دراسة سابقة[69]، فإن كثيرا من أعلام فقهاء العصر، ممن كانوا ينتمون إلى عائلات عريقة في الجاه والثروة، لم يترددوا أبدا في التضامن مع الفقراء والمحتاجين، خلال مختلف الأزمات التي عصفت بتاريخ المنطقة. ومصداق ذلك ما تطالعنا به سير أمثال أبي بكر بن العربي (ت543هـ/1148م)[70]، وأبي عبد الله بن زَنُّون (ت580هـ/1184م)[71]، وأبي عمر بن عَات (ت609هـ/1212م)[72]، وأبي إسحاق البَلَّفيقي (ت 616هـ/1219م)[73]، وأبي بكر بن خَطَّاب (ت 636هـ/1239م)[74]، من أخبار بذلهم، وبرّهم، وإحسانهم.

ولما كانت النفوس –بما فيها نفوس الفقهاء– تتفاوت في درجة البذل والسخاء، فإن بعض فقهاء العصر قد تجاوز في عطائه حد التضامن إلى الإيثار، بل والخروج عن كل ما يملك.

فهذا أبو عبد الله بن المُناصِف (ت 536هـ/1142م)، كانت له ضياع شاسعة، وأموال واسعة، وكان في إحدى السنوات العِجاف، يتعهد بالنفقة "**أكثر من ثلاثمائة بيت؛ يُعيل ديارهم، ويُقيل عِثارهم**"[75]، ولم ينزع عن ذلك، حتى أنه "**لم يبق عند نفسه منها إلا ما يأكل**"[76]. وهذا أبو بكر بن رِزق (ت 560هـ/1165م)، دخل سبْتة قادما إليها من المَرِيَّة، فوجد أهلها في شدة وضيق حال، فأنفق ما كان معه من مال "**على المساكين والصالحين**"[77]. وهذا أبو محمد بن الشَّيْخ (ت 666هـ/1268م)، حين نزلت بأهالي مالَقة مسْغَبة شديدة، عمد إلى كتب وأغراض كانت لديه، فباعها وتصدق بثمنها، وكان ذلك ديْدَنه، فلما توفي، لم "**يورث عنه دينار ولا درهم**"[78].

ولعل من أشهر الأمثلة التي تداولتها المصادر، عن سخاء بعض أمْلياء الفقهاء، حد الإيثار، ما يُروى عن أبي عبد الله المهْدوي (ت 595هـ/1199م)، من أنه كانت بفاس مجاعة شديدة، وكان عنده ألف صحْفة من قمح، فباع جميع ذلك القمح لأناس من أهل الستر، وجعل عليهم عقودا إلى أجل، فلما حان الأجل استدعاهم، وقام بإتلاف العقود، بأن حلّها في الماء، وحيال دهشتهم، قال لهم: "**إنما بعته من الله تعالى، ولو قلت لكم خذوه بلا ثمن، ما اشتريتموه، فاحتلت عليكم بحيلة البيع والتأخير**"[79].

وكان الفقيه المهدوي، لما انتقل عن بلده المهدية، ونزل مدينة فاس، مشتملا على مال وفير، يقدّر بنحو أربعين ألف دينار ذهبي، فما "**زال ينفقها في سبل الخير، حتى لم يبق له غير دار باعها بعد ذلك**"[80]. يفيد ابن الزيات (ت 628هـ/1230م) أنه "**باعها من محمد بن علي القزّاز، فأعمره فيها، فلما خرجت جنازته منها قبض المشتري داره**"[81].

ولم يتأخر عن الأخذ بحظ من صنيع التضامن والإيثار حتى أولئك الفقهاء ممن كانوا يعيشون على الكفاف؛ فقد ورد الخبر عن دور الفقيه أبي زكرياء الزواوي (ت611هـ/1214م) في مجاعة أصابت بِجاية،

حيث قصد أعيان وميسوري المدينة، فرغبهم في المساهمة في التكفل بالمحتاجين، فاجتمع له قدر هام من المال، فاستأجر فندقا، ثم دعا إليه الفقراء والمساكين، فأنفق على طعامهم وكسوتهم، ثم أناط بهم مشرفا يقوم عليهم، فـ "**أغناهم عن السؤال، إلى أن أخصب الناس**"[82].

وأما بشأن المتصوفة، فعلى الرغم من أنهم كانوا في عداد الشرائح الاجتماعية البسيطة الأكثر عرضة لآثار الحروب والمجاعات، إلا أن ما وطّنوا عليه أنفسهم، من تقلّل من الدنيا، واقتصاد في متاعها، جعلهم – إلى جانب نظرائهم من الفقهاء– يضطلعون بأدوار إيجابية في حياطة المجتمع؛ إحسانا للمُعْوِزين، ومساندة للمأزومين، وتخفيفا على المبتلين.

يحتل عمل الخير قطب الرّحى في المنظومة الصوفية، ويولي المتصوفة أهمية كبرى للصدقة، ولاسيما بذل الطعام. يقول الشيخ أبو محمد عبد الخالق بن ياسين الدّغوغي (ت571هـ/1175م): "**طلبنا التوفيق زمانا فأخطأناه، فإذا هو إطعام الطعام**"[83].

وكان لأبي العباس السبْتي (ت601هـ/1205م) مذهب مشهور في الصدقة؛ إذ كان "**يرُد سائر أصول الشرع إليها**"[84]، ولا يفتأ يذكر بأن "**أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان، وأصل الشر في الدنيا والآخرة البخل**"[85]، وما لبث يحض كل متوسّل لحاجة على الصدقة[86]، وكان من رأيه أن ارتفاع الغلاء والقحط مرهونان بها؛ فإنما "**حُبس المطر لبخل البشر، ولو تصدقوا لمُطروا**"[87].

وإذا كان أبو يعْزى يلَنور (ت572هـ/1177م) قد آلى على نفسه أن يقتصر على العشر مما يملك، لأنه –يقول–: "**أستحي أن أمسك تسعة أعشار، وأصرف العُشر للمساكين، فإن هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل**"[88]، فإن من متصوفة العصر من كان يذهب مذهبا في البذل والعطاء، بحيث يؤثر غيره بكل ما يملك، ولو تأدّى ذلك إلى الإجحاف بنفسه وزوجه وولده[89].

وعلى شاكلة أبي يعزى بفاس، كان ثمة متصوفة في مختلف حواضر وبوادي المغرب والأندلس، كرّسوا أنفسهم للإحسان إلى الفقراء، والحدَب على المساكين، ورفْدهم بالطعام واللباس[90]، ومن الملاحظ أن إيلاء الاعتناء بالمرضى والأرامل والأيتام، كان قدرا مشتركا في الأعمال الخيرية التي تصدى لها رجال التصوف، وعلى نحو خاص في الأعياد والمناسبات[91].

ويسعنا أن نقف في سير المتصوفة على صور عديدة من الإحسان إلى المحاويج والمعدمين؛ كصنيع أبي القاسم بن العجوز (ت 547هـ/1152م)، الذي تصدّق في عام شديد بحصاد فدّان كان قد زرعه، ثم بدا له أن يحبّسه على المساكين[92]. وكصنيع أبي الحسن بن غالب (ت 568هـ/1173م)، الذي آل إليه ميراث عن أبيه، يُقدّر بنحو اثني عشر ألف دينار، فتصدق بها كلها[93]. ومن ذلك –أيضا– ما قام به أبو عبد الله بن مليح (ق 06هـ/12م) في عام مسغبة وغلاء، من إسعاف الناس بعشر صِحاف من قمح، حيث أوصى أهل بيته أن يمكّنوا منها كل سائل[94].

ومن مصاف الفقيه أبي عبد الله المهدوي (ت595ه/1199م)، اشتهرت عن معاصره المتصوف أبي زكرياء يحيى التادِلي (ت576ه/1180م) مآثر ومكرمات في الإرفاق والإيثار بماله، ففي ضائقة حلّت بأهل فاس سنة 571ه/1175م، كان يدّخر ما يعْدل غرفتين من قمح، فنذر أن يتصدق بجميع القمح الذي في إحدى الغرفتين، ففرقه على المساكين، ثم مكث يسيرا، فرأى أن الأزمة ليست إلى انفراج، فألحق مخزون الغرفة الثانية بالأولى[95]. واتفق أن كان بمراكش أوان مجاعة حاصلة، فطلب من بعض صحبه أن يجيئه "**بالفقراء الذين بجامع علي بن يوسف**"[96]، فلما جاءه بهم، أخرج إليهم "**قمحا وسمنا كان عنده، ففرقه عليهم حتى لم يبق له منه شيء**"[97].

ولما لم يكن جل المتصوفة من ميسوري الحال، فليس مستغربا أن نصادف من كان يقوم بمؤونة المساكين من عائد صيده[98]، أو مما كان يصله من إحسان غيره[99]، بل كان أحدهم إذا لم يجد ما يبذله لقاصده، رافقه إلى السوق يسأل الناس له[100].

بقي أن نتساءل **فيما إذا كان مسلك الفقهاء والمتصوفة في القيام على العمل الخيري، قد أثمر وعاء اجتماعيا حاضنا لذوي الفاقة والاحتياج، أم أن مسلكهم ذاك، لا يعدو كونه استجابة فردية، من أشخاص تهيأ لهم أن يتساموا على مشاعر الأثَرَة، ويتخلقوا بخلق الإيثار؟**

إننا سنعدو الحقيقة إذا ما تجاهلنا التفاوت الذي فُطرت عليه الأنفس البشرية، فبإزاء الكرماء يوجد البخلاء، وبإزاء السعداء يوجد الأشقياء، وبإزاء الشرفاء يوجد الأدنياء، ولذلك لن يفاجئنا أن يكون في مجتمع الغرب الإسلامي أشخاص انتهازيون يغتنمون فترات الأزمات والمجاعات، لأجل الإثراء والكسب غير المشروع، على حساب معاناة الناس وحاجتهم[101].

لكننا، إلى ذلك، لا نعدم الدلائل على شيوع روح التضامن على نطاق واسع في مجتمع الغرب الإسلامي، شفيعنا في ذلك، شهادة ابن فضل الله العمري (ت 749ه/1349م) من أن أهل المغرب "**ليس البخل إلا في أراذلهم، وفي كثير من أغنيائهم سماحة مُفرِطة، ومفاخرة بإطعام الطعام، والاعتناء بالمؤمِّل والقاصد**"[102].

وقد دلت حوادث ألمَّ بها ابن عِذارى (حي سنة 712ه/1312م) من نكبات حلت بأهالي الأندلس، في سنوات متفرقة، على رسوخ سلوك التضامن بين الناس. ففي سنة 565ه/1170م تضررت مدينة بَطَلْيَوْس بسبب اتصال الحصار عليها، وعدم الأقوات، فسيّر إليهم أهل إشْبيلِيَة "**ميرة موفورة من الطعام، والآلات والمحلات... فاجتمع في ذلك نحو خمسة آلاف دابة موقورة بما** ذكر"[103]. وفي سنة 578ه/1182م تمكن جيش قَشْتالة من الاستيلاء على حصن شَنْتَفِيلَة، وأسر من فيه من المسلمين، وكان عددهم سبعمائة ما بين رجال ونساء، فبادر أهل إشبيلية إلى فدائهم بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين دينار، تنافسوا في استيفائه في حرم المسجد[104]. وحدث قبل ذلك –سنة 568ه/1172م– أنْ اقتحمت مدينة باجَة على أهلها، بسبب سوء

تدبير واليها، فتعرض أهلها للأسر، ووصل من افتدي منهم إلى مراكش في حال مزرية، فوجدوا من أهلها "**الحنان بالعطاء والإيناس، فانجبروا بعد تفرقهم أيدي سَبا، وبعد أن أورثتهم الحوادث وَصَبا**"[105].

5.اشتراك الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في العمل الخيري... تكامل أم تضاد؟

في الظاهر أن توارد الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية على العمل الخيري، لا يمكن سوى أن يكون مراده واحدا، ومردوده ذا فائدة مرجوّة، بالنسبة للفئات المعوِزة، والشرائح المتضررة، لأن ما قد يعمه نفعُ السلطة الحاكمة، قد لا يكون في متناول الممثليات الأهلية، وما قد يصل إليه نفع الرعايا بعضهم إلى بعض قد لا ترصده عين السلطة، ويندّ عن اعتنائها.

غير أن التوجّس ليس مما يمكن تلافيه بين طرفين، كلاهما يملك قدرا من النفوذ والحُظوة والتأثير، ولعله ما حدا بالسلطة السياسية في مختلف الحقب والعصور لمحاولة إحكام قبضتها على مسارب العمل الخيري، وإخضاعه لإشرافها أو على الأقل لرقابتها. في مقابل ذلك يسعى الطرف الثاني، لدواع قد لا تكون عائدة بالضرورة إلى مقتضيات الورع والإخلاص، إلى الانفلات من فلك السلطة الحاكمة، والتحرر من القيود التي تفترضها أو تفتعلها لتأطير العمل الخيري في المجتمع.

إن التوارد على مباشرة العمل الخيري بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية، ليكاد يشعر بنوع من التنافس الصامت "**على مواقع التأثير والاستقطاب، لتوسيع القواعد والولاءات في أزمنة المجاعات**"[106]. ولئن كان اضطلاع الفقهاء بالعمل الخيري قد لا يثير قلقا كبيرا لدى الحكام على اعتبار أن الفقهاء كانوا دوما محسوبين على السلطة الحاكمة بدرجة أو أخرى[107]، لكن اتساع نطاق مساحة حضور النشاط الصوفي في أوساط العامة، لطالما كان محل تحوّط وارتياب من قبل السلطة السياسية[108].

ولذلك لا نستغرب من ملاحقة كثير من أنظمة الحكم التي تداولت على حكم بلاد المغرب، لرجال الصوفية، والتضييق عليهم، بل ومساءلتهم واستنطاقهم، بما أفضى في عدد من الأحيان إلى نكبهم، وحبسهم، وتغريبهم، ولم يشفع لهم إلحاحهم على نبذ القول بالخروج على الحكام.

ليس ثمة وضع مثالي، ولا يمكن محاكمة النوايا بحال، ولكن التعاضد الممكن بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على العمل الخيري، بمنأى عن التوظيف السياسي، هو السبيل الوحيد لتفعيل منازع الخير في المجتمع، والتكفل بحاجات قطاعات مجتمعية كانت ولا تزال مستهدفة أكثر من غيرها لتقلبات الاقتصاد كما لنوازل السياسة.

خاتمة

لم يكن من مقاصد هذا البحث أن يأتي بالقول الفصل، فيما يتصل بمدى التكامل بين الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية في القيام على العمل الخيري، ولكنه حاول –فيما نزعم– أن يستأنس بواقع تاريخي عياني، ليختبر إمكانات هذا التكامل، وآلياته، وينفذ إلى بناه الداخلية من خلال سبر المرجعية الدينية المؤطرة للعمل

الخيري في الإسلام، والوقوف على تجلياته في الواقع، منظورا إليه من زوايا مختلفة؛ من زاوية السلطة السياسية الحاكمة، ومن زاوية ممثلي المجتمع الأهلي من فقهاء ومتصوفة.

إن البحث وإن يكن عماده الواقع التاريخي العياني في حقبة العصر الوسيط، بما لا يتجاوز حدود المغرب والأندلس، مستمدا أكثر شواهده من التجربتين السياسيتين الرائدتين: المرابطية والموحدية، اللتين استلهمهما ابن خلدون في مقدمته، إلا أنه لا يرتهن لتلك اللحظة التاريخية المنصرمة، بقدر ما يستحضر –ولو على سبيل الإيماء– الخصوصية المعاصرة للعلاقة بين مؤسسات الدولة الرسمية والأهلية في القيام على العمل الخيري، وهو خيار يراهن على مدى وعيه بمضمرات التاريخ وأنساقه العميقة البطيئة في الكشف عن مقاصد النصوص، والاهتداء إلى سنن الله في الآفاق والأنفس.

الهوامش:

(1) أخرجه مُسْلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسانَ من الثواب بعد وفاته، من **جامعه الصحيح**، دار الأفكار الدولية، الرياض، 1998، ص670 (رقم 1631).

(2) أخرجه التِّرْمِذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في السخاء، من **جامعه المختصر من السُّنن عن النبي ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل**، دار الأفكار الدولية، الرياض، 1999، ص329 (رقم 1961). وفي إسناد الحديث مقال.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية والحجَبة عنه، من **سننه**، دار الأفكار الدولية، الرياض، 1999، ص334 (رقم 2948).

(4) يراجع ابن أبي زمنين: **تفسير القرآن العزيز**، تحقيق: حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، 2002، 262/1، 336–337، 368/4–370، 52/5–53؛ وابن عطية: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، 367/1–368، 370–371، 546–547، 287/5–288، 390–391؛ وأبو حيان: **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، 328/2–345، 120/3–134، 239/8–246، 351–359.

(5) يراجع عِياض: **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، تحقيق: يحيى إسماعيل، ط1، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 1998، 373/5؛ وابن العربي: **عارضة الأحْوذي بشرح صحيح الترمذي**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.، 138/8–140؛ والخطابي: **معالم السنن في شرح سنن أبي داود**، نشر: محمد راغب الطباخ، ط1، المطبعة العلمية، حلب، سوريا، 1932–1934، 09/3.

(6) من أبرز الدراسات التي تصب في هذا المنحى، يمكن الإحالة على عز الدين العلام: **الآداب السلطانية –دراسة في بنية وثوابت الخطاب السياسي–**، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006، ص203–206؛ وكمال عبد اللطيف: **في تشريح أصول الاستبداد –قراءة في نظام الآداب السلطانية–**، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1999، ص103–218.

(7) خصّ ابن الحداد (حي سنة 673هـ/1274م) الباب العاشر من كتابه لـ"فضل السخاء والجود المفضّل في الوجود"، بينما ترجم ابن رضوان (ت 783هـ/1381م) الباب الثالث عشر من كتابه بعنوان: "في الجود والسخاء ومكارم الأخلاق، والمكافأة على السوابق، والوفاء بالعهود، وذكر التهادي، وبذل المعروف والمكرمات". يراجع كتاباهما –على الترتيب–: **الجوهر النفيس في سياسة الرئيس**، ط1، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، الرياض، 1996، ص169؛ و**الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق: علي سامي النشّار، ط1، دار السلام، القاهرة، 2007، ص215.

(8) ابن هُذَيل: **عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة**، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، ص105.

(9) الماوردي: **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المَلك وسياسة المُلك**، تحقيق: محيي هلال السرحان، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص110-111؛ وابن الأزرق: **بدائع السلك في طبائع المُلك**، تحقيق: علي سامي النشّار، ط1، دار السلام، القاهرة، 2008، 377/1؛ وابن رضوان: **الشهب اللامعة**، ص336.

(10) الطُّرطوشي: **سراج الملوك**، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، ط1، الدر المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994، 358/1.

(11) أبو حَمُّو: **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تحقيق: محمود بوترعة، دار الشيماء، دار النعمان، الجزائر، 2012، ص209.

(12) المَغيلي: **تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين**، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1994، ص54.

(13) ابن الأزرق: **بدائع السلك**، 376/1.

(14) العبّاسي: **آثار الأُوَل في ترتيب الدول**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط1، دار الجيل، بيروت، 1989، ص73.

(15) الماوَردي: **نصيحة الملوك**، تحقيق: خضر محمد خضر، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983، ص232.

(16) المُرادي: **الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق: علي سامي النشار، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ص143.

(17) النُّوَيري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: عبد المجيد ترحيني وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، 76/24.

(18) الماوردي: **نصيحة الملوك**، ص193-225.

(19) القَلْعي: **تهذيب الرياسة وترتيب السياسة**، تحقيق: إبراهيم يوسف مصطفى عجو، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1985، ص128.

(20) ابن رضوان: **الشهب اللامعة**، ص283.

(21) التّبْريزي: **النصيحة للراعي والرعية**، تحقيق: أبو الزهراء عبيد الله الأثري، ط1، دار الصحابة، طنطا، مصر، 1991، ص43.

(22) ابن المَوْصلي: **حسن السلوك الحافظ دولة الملوك**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1، دار الوطن، الرياض، 1995، ص195.

(23) العباسي: **آثار الأُوَل**، ص95؛ والشَّيْزري: **النهج المسلوك في سياسة الملوك**، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص104.

(24) ابن المالَقي: **أنجم السياسة**، تحقيق: عبد الله كنون، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1989، ص35-36.

(25) الماوردي: **درر السلوك في سياسة الملوك**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط1، دار الوطن، الرياض، 1997، ص114.

(26) الغزالي: **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**، تحقيق: محمد أحمد دمج، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، 1987، ص264.

(27) ابن الأزرق: **بدائع السلك**، المصدر السابق، 191/1.

(28) المغيلي: **تاج الدين**، المصدر السابق، ص58.

(29) اشتهرت بلاد المغرب من قديم بكثرة خِصْبها، وطيب مرعاها، ووفرة وتنوع إنتاجها النباتي والحيواني، وعلى ما ابتليت به من الخراب الناجم -في شرقيها- عن الهجرة الهلالية، وما رافقها من حروب وفتن، إلا أن كثيرا من أقاليم المغرب ظلت مزدهية بخيراتها، طيلة القرن 06هـ/12م. يراجع الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق: فريق من الباحثين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، 221/1-316، 525/2-535؛ ومؤلف مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص110- 216.

(30) يراجع -على سبيل المثال- سميرة المزكلدي: "**المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (776-534هـ/1139-1375م)**"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس-ظهر المهراز، 2003-2004؛ وعبد الهادي البيّاض: "**الكوارث الطبيعية وأثرها في أنماط سلوك الإنسان بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط (القرن: 6-8هـ/12-14م).. مساهمة في دراسة أثر التغيرات المناخية في الذهنيات**"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2006-2007؛ وسمية مزدور: "**المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (927-588هـ/1192-1520م)**"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، 2008-2009.

(31) من أبرزها الندوة التي نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي، بمناسبة الأيام الوطنية العاشرة لها، بعنوان: "**المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**"، والمنعقدة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب، بتاريخ: 25-26 أكتوبر 2002، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، 2004.

(32) تعرضت مرَّاكُش -لوحدها- إبان فترة حكم الموحدين لعشرين حالة من الغلاء والمجاعة، وقعت أربع عشرة منها في النصف الأول من القرن 07هـ/13م. يراجع محمد رابطة الدين: **مراكش زمن حكم الموحدين -جوانب من تاريخ المجال والإنسان-**، تقديم: مصطفى الشابي، ط2، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، 2016، 58/2.

(33) ابن العربي: **سراج المريدين في سبيل الدين**، تحقيق: عبد الله التوراتي، ط1، دار الحديث الكتانية، طنجة، بيروت، 2017، 72/1.

(34) ابن عِذارى: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب -قسم الموحدين-**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص266-267.

(35) ابن نظيف: **التاريخ المنصوري؛ تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان**، تحقيق: أبو العيد دودو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص84.

(36) فضلا عن التصدع الذي أصاب الجبهة الأندلسية بعد هزيمة العِقاب (609هـ/1212م)، فقد ابتلي البيت الحاكم الموحدي بصراع داخلي على العرش، دفعت الرعية ثمنها غاليا من أمنها واستقرارها ولقمة عيشها. يراجع ابن أبي زَرْع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1972، ص243-254.

(37) ابن عذارى: **البيان المغرب** (ق. الموحدين)، المصدر السابق، ص325.

(38) المصدر نفسه، ص324.

(39) المصدر نفسه، ص325.

(40) القَشْتالي: **تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان**، تحقيق: فرناندو دي لاجرانخا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مج 17/1972-1973، ص65.

(41) ابن عذارى: **البيان المغرب** (ق. الموحدين)، المصدر السابق، ص351.

(42) يذهب أحد العلماء المغاربة من القرن 09هـ/15م إلى أن الأمراض الوبائية تحدث بإثر موجة غلاء، وأن الغلاء لحدوثه سببان: إما احتباس المطر، وإما فشو الفتنة والحروب. يراجع ابن هيْدور: **المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية**، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 9605، ص2.

(43) للوقوف على مختلف السلوكات المنتهجة، والأساليب المبتكرة، في التكيف مع نمط تغذية بديلة زمن المجاعات، يراجع إبراهيم القادري بوتشيش وعبد الهادي البيّاض: "**ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات.. المغرب والأندلس من القرن 6 حتى القرن 8هـ/12-14 نموذجا**"، مجلة عصور الجديدة، (وهران)، ع7-8/2012-2013، ص31-49.

(44) أعملت مصطلح "**الحكومية**"، ورجوت أن يكون سائغا، لما يحمله مدلول الجذر "**حكم**" من معان، لها صلة بإعمالاتنا الحاضرة، ولما يقرب من ذلك من إعمالات تراثية، كالذي نقرأه في عنوان مصنَّف للونْشَريسي (ت 914هـ/1508م): **كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية**، نشر: محمد الأمين بلغيث، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1985.

(45) ابن أبي العَيش: **التذكرة في قبول المعذرة وفيما جاء في العفو عند المقدرة**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد الهيباوي، ط1، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2008، ص72.

(46) الجُوَيني: **غِياث الأمم في التياث الظُلَم**، تحقيق: عبد العظيم الديب، ط2، منشورات رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، الدوحة، 1981، ص233.

(47) يطلق اصطلاح "**المخزن**" في أدبيات التاريخ السياسي المغربي على أجهزة الدولة السلطانية أو بتعبير أدق السلطة السياسية الحاكمة، وقلما يراد به مخازن بيت المال، على ما ترجّح لدى بعضهم، على غرار الباحث صابر عبد المنعم البلتاجي في كتابه: **النظم**

والمعاملات المالية في المغرب عصر دولة الموحدين (668-524هـ/1130-1269م)، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2012، ص97-100.

(48) سميرة المزكلدي: "**المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط**"، المرجع السابق، ص224.

(49) عز الدين جسّوس: "**الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين**"، ضمن أعمال ندوة: "**المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**"...، المرجع السابق، ص70.

(50) إبراهيم القادري بوتشيش: "**ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين**"، مجلة مكناسة، (مكناس)، ع 1992/06، ص123.

(51) ابن عذارى: **البيان المغرب** (ق. الموحدين)، المصدر السابق، ص321.

(52) ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة**، السفر الثامن، تحقيق: محمد بنشريفة، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984، ص242.

(53) يطلق الحُوَّارَى على الدقيق الأبيض. الرازي: **مختار الصِّحاح**، نشر: مصطفى ديب البُغا، ط4، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1990، ص110-111.

(54) ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة**، المصدر السابق، 241/8.

(55) قام يعقوب المنصور (595-580هـ/1184-1199م) غداة مبايعته بالخلافة بتفريق مائة ألف دينار ذهبي على الضعفاء والمحاويج. ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، المصدر السابق، ص217.

(56) تصدق يوسف بن عبد المؤمن (580-558هـ/1163-1184م). عقب شفائه من مرضه الذي أقعده لعدة شهور، بأموال كثيرة على الضعفاء والغرباء والمساكين. ابن صاحب الصلاة: **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جهلهم أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1964، ص419-421.

(57) أنفق يعقوب المنصور عشية خروجه إلى الجهاد بالأندلس سنة 591هـ/1195م مقدار أربعين ألف دينار، فرقها مناصفة بين العامة والقرابة. عبد الواحد المراكشي: **المعجِب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994، ص237.

(58) ابن صَعْد: **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم 1910د، ص117.

(59) عبد الواحد المراكشي: **المعجب**، المصدر السابق، ص237.

(60) ابن صاحب الصلاة: **المن بالإمامة**، المصدر السابق، ص506.

(61) لاحظ أحد الباحثين أن هذه المجاعة تكون قد سقطت سهوا من المصادر الموحدية الرسمية أو قد تكون أُغفلت عمدا، وذلك نظرا لتزامنها مع ترتيبات إعداد الخليفة المنصور لحملته الجهادية إلى الأندلس، على أن ذلك قد يحمل -أيضا- على التساؤل، فيما إذا كان التاريخ المذكور للمجاعة صحيحا، فهل يكون الظرف ملائما للإعداد لحملة عسكرية؟ يراجع عبد الهادي البيّاض: "**الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط بين التدبير الرسمي والتضامن الشعبي**"؛ ضمن كتاب جماعي بعنوان: **النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط -دراسات في سوسيولوجيا الأحكام والقيم والعوائد-**، منشورات الزمن، الرباط، 2016، ص156.

(62) التعارجي: **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993-2002، 271/1.

(63) ابن عذارى: **البيان المغرب** (ق. الموحدين)، المصدر السابق، ص267.

(64) يثير الحديث عن جذور لمؤسسات مدنية أو أهلية في التاريخ العربي الإسلامي، تساؤلات وتحفظات مردها إلى أن اصطلاح "**مدني**" أو "**أهلي**" وثيق الصلة بالتجربة السياسية الغربية الحديثة، على أنه -ولا مُشاحَّة في الاصطلاح- فإن المجتمع الإسلامي كان يعج بالعديد

من الكيانات التي نهضت بوظيفة المؤسسات المدنية أو الأهلية؛ على غرار جماعات العلماء والقضاة والمفتين، وشيوخ الطرق الصوفية، ورؤساء الطوائف الدينية، فضلا عن شيوخ القبائل والعشائر، وعرفاء الحرف والصنائع. يراجع أحمد شكر الصبيحي: **مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي**، ط1، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص41-54.

(65) ابن خلدون: **المقدمة**، تحقيق: درويش الجويدي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ص364.

(66) ابن الأبّار: **التكملة لكتاب الصلة**، نشر: فرانسيسكو قوديرا، مطبعة روخس، مدريد، 1886-1889، 531/2، 677؛ وابن عبد الملك: **الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة**، الأسفار: الأول، والرابع، والخامس، والسادس، تحقيق: إحسان عباس ومحمد بنشريفة، دار الثقافة، بيروت، 1964-1973، 103/4، 235/5.

(67) وصمهم بذلك بعض خصومهم من الصوفية. يراجع -على سبيل المثال- ابن العَريف: **مفتاح السعادة وتحقيق طريق الإرادة**، تحقيق: عصمت عبد اللطيف دنْدش، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص99-100.

(68) سنخص بالذكر في هذا الصدد كلاً من محمود إسماعيل: **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، ط1، مؤسسة الانتشار، بيروت، سينا للنشر، القاهرة، 1992، 128/1/3-130؛ وعز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، ط1، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1983، ص152-153.

(69) يراجع كتابنا: **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي**، ط1، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، 2009، ص280-284.

(70) ابن العربي: **سراج المريدين**، 72/1.

(71) ابن عَسْكر: **أعلام مالَقة**، تحقيق: عبد الله المرابط الترغي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الأمان، الرباط، 1999، ص109-110.

(72) ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة**، المصدر السابق، 556/1-562.

(73) المقَّري: **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق: مصطفى السّقّا وآخرون، منشورات هيئة إحياء التراث الإسلامي، الرباط، أبو ظبي، 1978-1980، 106/4.

(74) ابن هانئ: **بغية المُستطرف وغُنية المتطرّف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المُطرّف**، تحقيق: محمد بن معمّر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014، ص396.

(75) قدّم ابن اليَسَع (ت 575هـ/1179م) لإفادته بقوله: "**كنت أسمع بمن وهب الآلاف، وألزم ماله الإتلاف، فيداخلني ما يداخل المُخبَر من تصديق وتكذيب، وتبعيد وتقريب، حتى باشرته [المذكور] ينفق** ...". يراجع كتابه: **المُغرب في محاسن المَغرب**، جمع وتوثيق: عبد السلام الجعماطي، ط1، دار الأمان، الرباط، 2016، ص143.

(76) ابن سعيد: **المُغرِب في حُلى المَغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، [1993-1995]، 163/1.

(77) ابن الزبير: **صِلة الصلة**، تحقيق: عبد السلام الهرّاس وسعيد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1993-1995، 249/5.

(78) المصدر نفسه، 37/4.

(79) ابن الزيّات: **التشوّف إلى رجال التصوف**، تحقيق: أحمد التوفيق، ط4، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2014، ص333؛ والتّميمي: **المُستفاد في مناقب العُبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تحقيق: محمد الشريف، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2002، 89/2؛ وابن القاضي: **جِذْوة الاقتباس في ذِكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1973، 273/1.

(80) ابن صعد: **النجم الثاقب**، المصدر السابق، ص229.

(81) ابن الزيات: **التشوف**، المصدر السابق، ص332.

(82) المصدر نفسه، ص429.

(83) المصدر نفسه، ص223.

(84) ابن الزيات: **أخبار أبي العباس السبْتي**، تحقيق: أحمد التوفيق، نشره بذيل التشوّف، ط4، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2014، ص453.

(85) المصدر نفسه، ص470.

(86) مؤلف مجهول: **مناقب الشيخ أبي العباس السبْتي**، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 12241، ورقات: 8و، 9و، 14و.

(87) ابن صعد: **النجم الثاقب**، المصدر السابق، ص108-109.

(88) الصَّوْمَعي: **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق: علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1996، ص70.

(89) ابن الزيات: **التشوف**، ص242، 246، 298-299.

(90) ابن عسكر: **أعلام مالقة**، المصدر السابق، ص291؛ والقشتالي: **تحفة المغترب**، ص65؛ وابن عربي: **روح القدس في محاسبة النفس**، تحقيق: عزّة حصريّة، مطبعة العلم، دمشق، 1970، ص94؛ والماجري: **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، تحقيق: عبد السلام السعيدي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2013، 572/2؛ وابن الصبّاغ: **درّة الأسرار وتحفة الأبرار في أقوال وأفعال وأحوال ونسب وكرامات وأذكار ودعوات سيدي أبو الحسن الشاذلي**، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، [2001]، ص23.

(91) ابن الزيات: **التشوف**، المصدر السابق، ص241؛ و**أخبار أبي العباس السبتي**، المصدر السابق، ص452؛ وابن الدبّاغ: **الأسرار الجلية في المناقب الدهْمانية**، تحقيق: عبد الكريم الشبلي، ط1، دار كونتراست للنشر، تونس، 2015، ص78، 173؛ وابن مريم: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص68؛ والرَّهُوني: **عُمدة الرّاوين في تاريخ تِطّاوين**، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1998-2015، 44/4.

(92) التميمي: **المستفاد**، المصدر السابق، 204/2.

(93) ابن قنفذ: **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص26.

(94) التميمي: **المستفاد**، المصدر السابق، 221/2.

(95) المصدر نفسه، 210/2-211.

(96) ابن الزيات: **التشوف**، المصدر السابق، ص246.

(97) المصدر نفسه، ص246.

(98) المصدر نفسه، ص183.

(99) المصدر نفسه، ص377.

(100) المصدر نفسه، ص298.

(101) يخبرنا ابن عبد الملك عما صار من فوائد جزيلة، في زمن المجاعة وارتفاع الأسعار، لصالح السماسرة، الذين اغتنموا الفرصة في سبيل الاغتناء، ومراكمة الثروات. **الذيل والتكملة**، المصدر السابق، 177/8-178.

(102) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، أشرف على تحقيقه: كامل سلمان الجبوري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، 85/4.

(103) ابن عذارى: **البيان المغرب** (ق. الموحدين)، المصدر السابق، ص110.

(104) المصدر نفسه، ص146.

(105) المصدر نفسه، ص129-130.

(106) عبد الهادي البياض: "**الطعام والإطعام زمن المجاعات بالمغرب والأندلس**"، المصدر السابق، ص161.

(107) يراجع كتابنا: **الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي بين التنظير والممارسة**، ط3، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، الجزائر، 2018، ص10-36.

(108) يراجع كتابنا: **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية**، ص324-331.